

الأكليـلُ

فِي الْمُنْشَابَةِ وَالتَّأْوِيلِ

تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

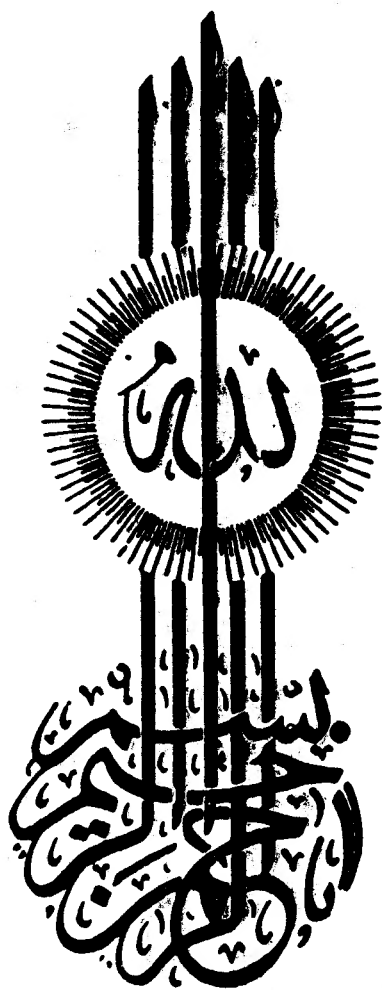
فَرَّجَ أَهَارِيتهُ وَعَلَى عَلَيْهِ
مُحَمَّدُ الشَّيْخِي شَحَّاهُ
عَفْظُهُ اللَّهَ

دَارُ الْأَيْمَانِ

للطبع والنشر والتوزيع

١٧ شارع خليل الحياط - مصطفى كامل،

اسكندرية - ت ٥٤٥٧٧٦٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فهذه رسالة « الإكليل فى التشابه والتأويل » ، عرض فيها شيخ الإسلام ابن تيمية لموضوع خطير . الا وهو التأويل ، الذى كان له دور خطير فى تفتيت وحدة المسلمين كما كان له دور أشد خطورة فى طمس معالم الدين ، ولله در الإمام ابن القيم حين دعاه « طاغوت التأويل » وخص له جزء كبيراً من الصواعق المرسلة ، إذ جعله إصل الطواغيت التى يجب كسرها .

وقد بدأ شيخ الإسلام هذه الرسالة بذكر أقسام القلوب تبعاً لاستجابتها للحق ، وفى هذا إشارة إلى الجانب الأخلاقى من العقيدة والعلم وبيان لمفاسد التأويل على الحياة بأكملها ، فهناك فرق بين قلوب مرضت بالشكوك والشبهات وقلوب مؤمنة مخبة لانت للحق وثبتت عليه ، ومن القلوب المريضة بمرض الشكوك والشبهات قلوب أهل التأويل .

ومنهج شيخ الإسلام فى هذه الرسالة وسائر كتبه منهج سلفى صاف ، فقد اعتمد على صحيح المنقول وصريح المعقول ، إذ قام بدراسة للآيات الكريمة التى ورد فيها لفظ « التأويل » أبان فيها عن المعنى القرآنى للتأويل ، وبان به الفرق بين معناه عند المؤولة بأصنافهم :

وقد بين أن التشابه ما يحتمل معنيين مثل العام والمطلق والمجمل وبين أن الإحكام يكون تارة فى التنزيل وتارة فى إبقاء التنزيل معمولاً به غير منسوخ

وتارة في التأويل والمعنى وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا نشبه
بغيرها ، وبين أن الله عز وجل لم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا
الله وإنما قال ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

وأهل الزيغ يتركون المحكم الذى لا اشتباه فيه ويتفنون المتشابه طلباً للفتنة
ونشر الفساد ، وابتغاء تأويله هو طلب الحقيقة التى أخبر عنها ، ولما كان
الكلام نوعان ، إنشاء فيه الأمر ، وإخبار ، فإن تأويل الأمر - كما يوضح شيخ
الإسلام بحق - هو نفس الفعل المأمور به وتأويل الإخبار هو عين الأمر المخبر
به إذا وقع ، وليس تأويله فهم معناه ، مثل أمر الجنة والنار نفهم معنى الآيات التى
وردت فيها ولكن لا يدرك حقيقتها الخاصة بها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من
كل وجه ، إذ معرفة حقيقة الذات أصل معرفة حقيقة صفاتها .

وبين شيخ الإسلام أن الخبر له صورة علمية فى الذهن وله حقيقة
خارجية فمعرفة تفسيره هو معرفة الصورة العلمية والتأويل هو الحقيقة الخارجية ،
وهذا يشبه ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني من أن التفسير للألفاظ والتأويل
للمعاني .

ويبرز شيخ الإسلام مشكلة التطور الدلالى وأثرها فى فهم القرآن ،
فمصطلح التأويل كما عرفه أهل البدع صار بعد ذلك يفهم به لفظ «التأويل»
كما جاء فى القرآن ، وحمل آيات القرآن على الحديث فى اللغة بدعة بقول
بها صراحة بعض أهل الزيغ فى عصرنا ولها مخطورتها على الدين .

أما إدخال الأسماء والصفات فى المتشابه إن كان بمعنى لا يفهم معناه
فباطل وقول مبتدع لم يقل به أحد من سلف الأمة ، وقد استخدم شيخ
الإسلام صريح المقول فى هذا الجزء من الرسالة فأجاد وأفاد .

ومن الملاحظ أن شيخ الإسلام يهاجم التعطيل والتجسيم ، ونشير هنا إلى بشاعة نسبة الكوثري ومن شايعه من نسبة شيخ الإسلام إلى المجسمة ، بينما هو في كتابه ينص صراحة على رفض التعطيل والتجسيم معاً ، وقد نشرت منذ عدة سنوات رسالة « حول » التجسيم عند المسلمين نفت هذا الافتراء بشكل قاطع .

ويخلص شيخ الإسلام إلى أن التأويل الذي اختص الله به هو حقيقة ذاته وصفاته والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله ، مثل تأويل الأمر بالصلاة هو الصلاة نفسها ، وتأويل النهي عن القتل هو عدم القتل ، أما تأويل الخبر عن المستقبل كأشراط الساعة والقيامة والجنة والنار فهذا ينتظر ويأتي ولما يأتيهم .

اللهم بصرنا بديننا واهدنا وثبت أقدامنا

أنظر :

- ١ - تحفة الإخوان في صفات الرحمن : د. محمد بن محمد بن عبد العليم .
- ٢ - التجسيم عند المسلمين مذهب الكلامية : سهير محمد مختار ١٩٧١ .
- ٣ - في التشريع الإسلامي : د. السيد أحمد خليل ١٩٦٧ دار المعارف .
- ٤ - القواعد المثلى : محمد بن صالح بن عثيمين . مكتبة السنة . طبعة محققة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال شيخ الاسلام علم الأعلام ، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني
الدمشقي : الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
(فصل) قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ،
ألقى الشيطان في أميته - إلى قوله - ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة
للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ،
وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ، فتختبئ له
قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾^(١) .

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام : قاسية ، وذات مرض ، ومؤمنة مخيبة ،
وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لاتلين للحق اعترافا وإذعانا ،
أو لا تكون يابسة جامدة فـ (الأول) هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة
الحجر ، لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرسم فيه العلم ، لأن ذلك يستدعى
محلّا كينا .

(١) الحج : ٥٢

- ١ - قال ابن كثير : أن النبي (ﷺ) كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة
الحيلة ، فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يمنك ليستمع المسلمون ، ويعلم الله عز وجل
أن الصلاح في غير ذلك ، فيبطل ما يلقى الشيطان
تمنى : إذا حدث نفسه فتنة : ضلالة
مرض : شرك ونفاق .
أوتوا العلم : المقصود بهم المؤمنين ، تختبئ : تخضع وتسكن .

(الثانى) لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينة، أو يكون لينة مع ضعف وانحلال، فالثانى هو الذى فيه المرض، والأول هو القوى اللين، وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلاً، فإما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوى ولا تبطش، أو تبطش بعنف، فذلك مثل القلب القاسى، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها، فذلك الذى مرض، أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم، فبالرحمة خرج عن القسوة، وبالعلم خرج عن المرض، فإن المرض من الشكوك والشبهات، ولهذا وصف من عدى هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات.

وفى قوله «وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم» دليل على أن العلم يدل على الإيمان، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الإيمان، كما يتوهمه طائفة من المتكلمة، بل معهم العلم والإيمان، كما قال تعالى «لكن الراسخون فى العلم منهم، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك»^(١) وقال تعالى «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان»^(٢).

وعلى هذا فقوله «والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا»^(٣).

نظير هذه الآية : فإنه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم، وأخبر هناك أنهم يقولون فى التشابه «آمنا به كل من عند ربنا».

(١) النساء / ١٦٢ .

(٢) الروم / ٥٦ .

(٣) آل عمران / ٧ .

وكلا الموضعين موضع شبهة لغيرهم، وأن الكلام هناك فى المتشابه^(١)
وهنا فيما يلقى الشيطان مما ينسخه الله ثم يحكم الله آياته، وجعل المحكم هنا
ضد الذى نسخ الله مما ألقى الشيطان.

(١) اختلف العلماء فى تفسير المحكم والمتشابه .
أحدهما : أن المحكمات هى قوله تعالى فى سورة الأنعام «قل تعالوا أأمرهم عليكم ألا
تشرکوا به شیئا» ٦/١٥١ ، إلى آخر الآية والأيتين اللتين بعدها، والمتشابهات هى التى
تشابهت على البهية . وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور ، وذلك أنهم
أولوها على حساب الجمل ، فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة ، فاختلط الأمر
عليهم واشتبه ، هذا القول مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وزعم الفخر الرازى أن
المراد به : أن المحكم مالا يختلف فيه الشرائع كالوصايا فى تلك الآيات الثلاث ، والمتشابه ما
يسمى بالمجمل أو هو ما تكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية إلا بدليل
منفصل .

ثانيهما : أن المحكم هو الناسخ ، والمتشابه هو المنسوخ ، وهو مروى عن ابن عباس أيضا وعن ابن
مسعود وغيرهما .

ثالثها : أن المحكم ما كان دليله واضحا لا محالة ، كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما
يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل وعزاه الرازى إلى الأصم ويبحث فيه .

رابعها : أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى ، والمتشابه : مالا يسيل إلى
العلم به كوقت غيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال .
وهذه الأقوال ذكرها الرازى ، وقد ذكر ابن جرير غيرها منها :

خامسها : أن المحكمات : ما أحكم الله فيها بيان حلاله وحرامه ، والمتشابه منها : ما أشبه بعضهم
بعضا فى المعانى وإن اختلفت ألفاظه ، رواه ابن جرير عن مجاهد ، وعبارته عنده : محكمات
ما فيه من الحلال والحرام ، وما سوى ذلك فهو متشابه يصرف بعضه بعضا وهو مثل قوله
«وما يضل به إلا الفاسقين» ٢٦/٢٦ ، ومثل قوله «كذلك يجعل الله الرجس على الذين
لا يؤمنون» ١٦/٦ ، وكأن مجاهداً يعنى بالمتشابه : ما فيه إيهام أو عموم أو إطلاق ، أو
كل ما لم يكن حكما عمليا ، فهو عنده خاص بالإنشاء دون الخبر .

سادسها : أن المحكم من أى الكتاب : ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهها واحداً .
والمتشابه : ما احتمل أوجهها . رواه ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير وعبدته عنده هكذا : =

ولهذا قال طائفة من المفسرين المتقدمين : المحكم هو الناسخ والمتشابه المنسوخ^(١).

أرادوا والله أعلم قوله «فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته» والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله^(٢).

وقد أشرت إلى وجه ذلك فيما بعد وهو أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة ومقابل المنسوخ أخرى .

والمنسوخ يدخل فيه فى اصطلاح السلف، كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح، كتخصيص العام وتقييد المطلق^(٣).

= آيات محكمات من حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصرف وتخريف وتأويل ابتلى الله منهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق . أ.هـ .
سابعها : أن التقسيم خاص بالقصص ، فالحكم منها ما أحكم ، وفصل فيه خبر الأنبياء مع أممهم ، والمتشابه : ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير فى السور ، وأطال فى التمثيل له .

ثامنها : أن المتشابه ما يحتاج إلى بيان وهو مروي عن الإمام أحمد والمحكم ما يقابله ناسعها : أن المتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به ذكره ابن تيمية ، والظاهر أن جميع الأخبار فالمحكم هو قسم الإنشاء .

عاشرها : أن المتشابه آيات الصفات (أى صفات الله) خاصة ومثلها أحاديثها ذكره ابن تيمية .
(١) الطبرى ج ١٧٤/٦ ، والنسخ فى اصطلاح الأصوليين : رفع الشارع حكما شرعياً بدليل متراخ ، فالنسخ يكون فيه النصان النسخ والمنسوخ غير مقترنين زماناً بل يكون النسخ متأخراً عن المنسوخ .

(٢) القرطبي ج ٤٧٧/٧ .

(٣) الموافقات للشاطبي ج ٧٣/٣ ط صحيح .

فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ، ويدخل فيه المجهمل^(١) ، فإنه متشابه وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذى ليس بمراد وكذلك ما رفع حكمه ، فإن فى ذلك جميعه نسخاً لما يلقى الشيطان فى معانى القرآن ، ولهذا كانوا يقولون : هل عرفت الناسخ من المنسوخ ؟ فإذا عرف الناسخ عرف المحكم ، وعلى هذا فيصح أن يقال : المحكم والمنسوخ ، كما يقال المحكم والمتشابه .

وقوله بعد ذلك « ثم يحكم الله آياته »^(٢) .

جعل جميع الآيات محكمة ، محكمها ومتشابهها ، كما قال تعالى «الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت»^(٣) .

(١) الاجمال فى القرآن له أسباب

أحدها : أن يمرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت فى التركيب لقوله «فأصبحت كالصريم» قيل : معناه كالنهار بيضة لاشئ فيها ، وقيل كالليل مظلمة لاشئ فيها .

الثانى : من حذف فى الكلام «فوترهبون أن تكسوهن» قيل معناه ترغبون فى نكاحهن لما لهن ، وقيل معناه : هن نكاحهن لزمانتهن وقلة ما لهن والكلام يحتمل الوجهين .

الثالث : من عيبن الضمير «أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح» فالضمير فى (يده) يحتمل عوده على الولي وعلى الزوج .

الرابع : من موقع الوقت والابتداء كقوله «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم» فقوله (الراسخون) يحتمل أن يكون معطوفاً على اسم الله تعالى ويحتمل أن يكون ابتداء الكلام .

الخامس : من جهة غرابة اللفظ كقوله «فلا تمضواهن» .

السادس : من جهة التقديم والتأخير كقوله «ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى» فقدمه : ولو كلمة سبقت من ربك أو أجل مسمى لكان لزاماً .

الثامن : من جهة المنقول المتقلب كقوله «وطور سنين» أى طور سينا «إن يتبعون إلا الظن» .

(٢) الحجج / ٥٢ .

(٣) هود / ١ .

وقال «تلك آيات الكتاب الحكيم»^(١) على أحد القولين، وهنالك جعل الآيات قسمين : محكما ومتشابهها ، كما قال «منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات»^(٢) وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن ، لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله فصار المحكم فى القرآن تارة يقابل بالمتشابه ، والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخ الله مما ألقاه الشيطان . ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخ الله مطلقا ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكما ، وإن كان الله أنزله أولا اتباعاً لظاهر من قوله فينسخ الله ويحكم الله آياته .

فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها .

وجماع ذلك أن الإحكام تارة يكون فى التنزيل فيكون فى مقابله ما يلقيه الشيطان ، فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه^(٣) الله أى فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه ، فإن الأحكام هو الفصل والتمييز ، والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشئ ويحصل إتقانه ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل فى الحد بالمنع جزء معناه لاجميع معناه وتارة يكون فى إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع وهو اصطلاحى ، أو يقال وهو أشبه بقول السلف : كانوا يسمون كل رفع نسخا ، سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة^(٤) والقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس المبلّغ ، وقد يكون

(١) يونس / ١ .

(٢) آل عمران / ٧ .

(٣) المحكمات من أحكم الشئ بمعنى : وثقه وأتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع ، فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه ومنه الحكم والحكمة الفرس ، قيل وهى أصل المادة .

(٤) الموافقات للشاطبى ج ٣ / ٧٣ .

فى فهمه كما قال «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها»^(١) الآية ومعلوم أن من سمع النص الذى قد رفع حكمه أو دلالة له فإنه يلقى الشيطان فى تلك التلاوة ، اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به رفع الحكم وبان المراد ، وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ بهذا اعتبار والله أعلم.

ونارة يكون الإحكام فى التأويل^(٢) ، والمعنى وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى تشبه بغيرها ، وفى مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا ، فتكون محتملة للمعنيين ، ولم يقل فى المتشابه يعلم تفسيره ومعناه إلا الله ، وإنما قال «وما يعلم تأويله إلا الله» وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع فإن الله أخبر أن لا يعلم تأويله إلا هو .

والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه أصحاب رسول الله (ﷺ) وجمهور التابعين وجماهير الأمة .

ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره بل قال «كتاب أنزلناه إليك ليبدروا آياته»^(٣)

وهذا يحتمل الآيات المحكمات والآيات المتشابهات ، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر وقال «أفلا يتدبرون القرآن»^(٤) ولم يستثن شيئا منه نهى عن تدبره ،

(١) الرعد / ١٧ .

(٢) التأويل يكون بمعنى التفسير ، ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه ، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه ، أى صار وأولته تأويلا أى صيرته ، وقد عرفه بعض الفقهاء بقولهم : هو إبداء احتمال فى اللفظ مقصود بدليل خارج عنه .

(٣) ص / ٢٩ ، أى اتباعه بعمله .

(٤) النساء / ٨٢ .

والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله^(١) فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه .

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي (ﷺ) كحیی بن أخطب وغیه من طلب من حروف الهجاء التي فی أوائل السور تأویل هذه الأمة .^(٢)

(١) روى مسلم عن عائشة أن النبي ﷺ قال حينما تلا هذه الآية قال (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سلبهم الله فأحذروهم) .

(٢) أخرج البخارى فى التاريخ وابن جرير عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال : مر أبو ياسر بن أخطب ، فجاء رجل من يهود لرسول الله (ﷺ) وهو يتلو فاتحة سورة البقرة «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه» فأتى أخاه حى بن أخطب فى رجال من اليهود ، فقال أتعلمون؟ والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه «ألم» . ذلك الكتاب» فقال : أنت سمعته . قال : نعم . فمشى حتى وافى أولئك النفر إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا : ألم نقل إنك تتلو فيما أنزل عليك «ألم ذلك الكتاب» ؟ فقال : بلى فقالوا : لقد بعث بذلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه ، وما أجل أمته غيرك ، الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة ، ثم قال : يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال : نعم «المص» قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون هذه إحدى وثلاثون ومائة هل مع هذا غيره؟ قال : نعم «المر» قال : هذه أثقل وأطول واللام ثلاثون والراء مائتان ، هذه إحدى وثلاثون ومائتان هل مع هذه غيره؟ قال : نعم «المر» قال : هذه أثقل وأطول . هذه إحدى وسبعون ومائتان . ثم قال لقد ليس علينا أمرك حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً . ثم قال : قوموا عنه . ثم قال أبو ياسر لأخيه ومن معه : ما يدريكم لعله قد جمع هذا كان لمحمد . إحدى وسبعون ، وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع سنين ! فقالوا : لقد تشابه علينا أمره ، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم «وهو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» الدر المنثور ج ٧/٢ - ٨ .

كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصائبة المنجمين ، وزعموا أنه اسماء ثلاثة وتسعون عامما ، لأن ذلك هو عدد ما للحروف فى حساب الجمل بعد إسقاط المكرر ، وهذا من نوع تلويل الحوادث التى أخبر بها القرآن فى اليوم الآخر .

وروى أن من التصارى الذين وفدوا على النبي (ﷺ) فى وفد نجران من تأويل إنا ونحن^(١) ، على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع ، وهذا تأويل فى الإيمان بالله ، فأولئك تأولوا فى اليوم الآخر ، وهؤلاء تأولوا فى الله ، ومعلوم أن إنا ونحن من التشابه ، فإنه يراد بها الواحد الذى معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذى معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذى يقوم مقام من معه غيره لتسوع أسمائه التى كل اسم منها يقوم مقام مسمى ، فصار هذا متشابها لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع والأسماء المشتركة فى اللفظ^(٢) هى من التشابه وبعض المتواطئة أيضا من التشابه ، ويسمى أهل التفسير «الوجوه والنظائر»^(٣) وصنفوا كتب الوجوه والنظائر ، فالوجوه فى الأسماء المشتركة ، والنظائر فى الأسماء المتواطئة ، وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين فى ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً فى الأسماء المشتركة ، فهى نظائر باعتبار اللفظ ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لم تأمله .

(١) القرطبي ج ٢ / ١٢٥٥ .

(٢) الاسم المشترك هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين ، فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة ، واختلاف الناس فيه ، فالأكثر على أنه يمكن الوقوع لجواز أن يقع إما من واضحين بأن يضع أحدهما لفظ المعنى ثم يضع آخر لمعنى آخر ، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين فى إفادته المعنيين .

(٣) المزهري فى علوم اللغة للسيوطي ج ٣ / ٣ وما بعدها .

والذين فى قلوبهم زيغ^(١) يدعون المحكم الذى لا اشتباه فيه مثل «واللهكم
إله واحد»^(٢) - إبنى أنا الله لا إله إلا أنا غابعدنى^(٣) - ما اتخذ الله من
ولد وما كان معه من إله^(٤) - ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى
الملك^(٥) - لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد^(٦)» ويتبعون المتشابه
ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وصفوه على غير مواضعه، وابتغاء تأويله وهو
الحقيقة التى أخبر عنها ، وذلك أن الكلام نوعان: إنشاء فيه الأمر وإخبار^(٧).

فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف إن
السنة هى تأويل الخير .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله (ﷺ) يقول فى ركوعه
وسجوده «سبحانك اللهم وبحمدك واستغفره إنه كان تواباً»^(٨).

وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه
وقد جاء اسم (التأويل) فى القرآن فى غير موضع وهذا معناه قال الله تعالى

(١) الزيغ : الميل ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار ويقال : زاغ يزيغ زيفاً إذا ترك القصد .

(٢) البقرة / ١٦٣ . (٣) طه / ١٤ .

(٤) المؤمنون / ٩١ . (٥) الإسراء / ١١١ .

(٦) الصمد / ٣ - ٥ .

(٧) هذه الأساليب التى نزاولها إنما تنحصر فى قسمين اثنين : أساليب خيرية وأساليب إنشائية .
أن الكلام إن أحتمل الصدق والكذب لذاته بحيث يصح أن يقال لقائله إنه صادق أو كاذب
سمى كلاماً خبيراً .

وإن كان الكلام بخلاف ذلك أى لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ولا يصح أن يقال لقائله إنه
صادق أو كاذب ، لعدم تحقق مدلوله فى الخارج وتوقفه على النطق به سعى كلاماً إنشائياً .

(٨) البخارى فى كتاب الآذان باب ١٣٩ التسييح والدعاء فى السجود حديث رقم ٨١٧
مسلم فى كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود .

«ولقد جنناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق»^(١)

فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشبه ثم قال (هل ينظرون) أى ينظرونه «إلا تأويله يوم يأتي تأويله» إلى آخر الآية.

وإنما ذلك مجع ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراتها ، كالدابة وبأجوج وماجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفاً صفاً ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين ، والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك^(٢) ، فحينئذ يقولون «قد جاءت رسل ربنا بالحق؟ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا؟ أو ترد فنحصل بهم الذى كنا نعمل»^(٣)

وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدرته وحفته إلا الله ، فإن الله يقول «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين»^(٤)

يقول : أعصت لعظمى الصالحين ما لا عين رأت ولا الحس سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٥) وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة

(١) الأعراف / ٥٢ وانظر تفسيرها فى الطبرى جـ ٢٣٧/١٢

(٢) الطبرى جـ ٢٣٧/١٢

(٣) الأعراف / ٥٣

(٤) السجدة / ١٧

(٥) البخارى فى كتاب التضرع باب (ومن سورة تنزيل السجدة) حديث رقم ٤٧٨٠

مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها جـ ١٠ / ٢٨٢

الترمذى فى كتاب التفسير باب (ومن سورة الواقعة) حديث رقم ٣٢٩٢

ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ٣٩ صفة الجنة حديث رقم ٤٣٢٨

فإن الله قد أخبر أن في الجنة خمرًا ولبنًا وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينها تباين عظيم مع التشابه كما في قوله «وأوتوا به متشابهاً»^(٢). على أحد القولين أن يشبه ما في الدنيا وليس مثله، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم، فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن، ومن دخل في الإسلام ووافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة^(٣) المنكرة لحشر الأجساد، وإن كان من مناققة الملتين المقرين بحشر الأجساد، تأول ذلك على تفهم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة، فكل ضال يحرف الكلم

(١) ابن كثير ج ٦٣/١. (٢) البقرة / ٢٥.

(٣) يقول صاحب الملل والنحل: إن الصبوة في مقابل الحنيفية، وفي اللغة صبا الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة. ومذهب هؤلاء أن للعالم صاناً فاطراً حكيماً مقدساً عن سمات الحدوث والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون.

وهم يقولون أن الأنبياء أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة يشاركوننا في المادة بأكولون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا في الصورة، أناس بشر مثلنا فمن أين لنا طاعتهم بأية مزية لهم لزم متابعتهم «ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون» ج ٩٥/٣.

عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته، وكان في هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ
الأسماء تشبه الأسماء ، والمضامين تشبه المضامين ولكن تخالفها أكثر مما
تشابهها ، فهؤلاء يتعمون هذا التشابه (ابتغاء الفتنة) بما يوردونه من الشبهات
على امتناع أن يكون في النجاة هذه الحقائق «وابتغاء تأويله» ليردوه إلى المعهود
الذي يعلمونه في الدنيا ، قال الله تعالى «وما يعلم تأويله إلا الله» فإن تلك
الحقائق قال الله فيها «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين».

لاملك مقرب ولا نبي مرسل .

وقوله «وما يعلم تأويله» أما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو
على التشابه فإن كان عائداً على الكتاب كقوله (منه) و (منه) فيتبعون ما
تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهذا يصح ، فإن جميع آيات الكتاب
الحكمة والتشابه التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم
حقيقة ذلك الغيب ومشي يقع إلا الله .

وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل
بقوله «ولقد جعلناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم
يؤمنون ، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله»^(١).

فجعل التأويل الجائز للكتاب المفصل .

وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدرأ ونوعاً وحقيقة إلا الله ، وإنما
نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا وكذلك قوله «هل
كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله»^(٢).

(١) الأعراف / ٥٢ .

(٢) يونس / ٣٩ قبل الفهم والمعرفة ، وقيل لم يخلصوا ما فيه من الهدى ودين الحق .

وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة ، وصار
هذا بمنزلة قوله «يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل : إنما علمها
عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض»^(١) إلى
قوله «إنما علمها عند الله» وكذلك قوله «يسألك الناس عن الساعة قل
إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً»^(٢).

فأخبر أن ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المصين
وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم
الساعة ، والساعة من تأويله ، وهذا واضح بين ، ولا ينافى كون علم الساعة عند
الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسير النصوص المبينة لأحوالها
فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه ، كما بقوله كثير من الناس فلأن
الخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهى ، ولهذا فى الآثار (العمل
بمحكمه والإيمان بمتشابهه)^(٣) لأن المقصود فى الخبر الإيمان ، وذلك لأن
الخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهى ،
ولهذا قال بعض العلماء : المتشابه : الأمثال والوعد والوعيد والمحكم والأمر
والنهى^(٤).

(٢) الأحزاب / ٦٣ .

(١) الأعراف / ٨٧ .

(٣) المتشابه يطلق فى اللغة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضه بعضاً وعلى ما يشبهه من الأمر
أى يلتبس .

قال فى الأساس : وتشابه الشيطان واشتبهها ومشتبهته به وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت :
التبست لإشياء بعضها بعضاً ، وفى القرآن المحكم والمتشابه ، وشبه عليه الأمر ، ليس عليه ،
وإياك والمشتبهات الأمور المشكلات .

(٤) سبق تفصيل معنى المتشابه .

فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور
نتركها لا بد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ (التأويل) فى القرآن قوله تعالى ﴿هل كذبوا بما لم
يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله﴾^(١) .

والكتابة عائدة على القرآن أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود إلى
القرآن .

قال تعالى ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن
تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم
يقولون افتراء ؟ قل : فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله
إن كنتم صادقين ، هل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله ،
كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، ومنهم
من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾^(٢) فأخبر
سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله^(٣) وهذه الصيغة تدل على
امتناع المنفى كقوله ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم﴾^(٤) وقوله ﴿وما كان
الله ليضلهم وأنت فيهم﴾^(٥) لأن الخلق عاجزون عن الإنيان بمثله كما
تخدهم وظالمهم لما قال ﴿أم يقولون افتراء ؟ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من

(١) يونس / ٣٩

(٢) يونس / ٣٧ - ٤٠

(٣) أى مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر .

(٤) هود / ١١٧

(٥) الأنفال / ٣٣

استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»^(١) .

فهذا تعجيز لجميع المخلوقين ، قال تعالى ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أى مصدق الذي بين يديه ﴿وتفصيل الكتاب﴾ أى مفصل الكتاب فأخبر أنه مصدق الذي بين يديه ومفصل الكتاب ، والكتاب اسم جنس ، وتحدى القائلين (افتراء) ودل على أنهم هم المفترون قال ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ أى كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه . ولما يأتهم تأويله .

ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله ، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والايمان بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع الخبر به ، وفرق بين معرفة الخير وبين المخبر به ، فمعرفة الخبر هى معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة المخبر به هى معرفة تأويله .

(ونكتة ذلك) أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها فى نفس العالم كذهن الإنسان مثلاً ، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة فى الخارج عن العلم ، واللفظ إنما يدل ابتداء على المعنى الذهنى ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجية ، فالتأويل هو الحقيقة الخارجة ، وأما معرفة تفسيره فهو معرفة الصورة العلمية ، وهذا هو الذى بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه لحكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله

وبين ذلك أن الله يقول عن الكفار ﴿واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن

(١) يونس / ٣٨ .

يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على
أدبارهم نقورا^(١).

فقد أخبر - ذمما للمشركين - أن إذا قرئ عليهم القرآن حجب بين
أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه
وفي آذانهم وقرا ، فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا
بعضه لشاركوهم في ذلك ، وفي قوله (أن يفقهوه) يعود إلى القرآن كله ،
فعلم أن الله يحب أن يفقه ، ولهذا قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا
وهو يحب أن يعلم فيما إذا أنزلت وماذا أعني بها ، وما استثنى من ذلك
لامتشابهها ولا غيره .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره
مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها^(٢).

فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول : لا يعلم تأويله إلا
الله^(٣) يحب مجاهداً عن كل آية في القرآن .

(١) الاسراء ٤٥ - ٤٦ - روى أبو يعلى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت (لما
انزلت «بنت هذا أبي لهب» جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول
مذمماً أمنا - أو أمنا - قال أبو موسى الشك مني - ودينه قلينا وأمره عصينا ، ورسول الله
(ﷺ) جالس وأبو بكر إلى جنبه . فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال :
إنها لن تراني ، وقرأ أنا اجتمع به منها «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون
بالآخرة حجاباً مستوراً» قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر ، فلم تر النبي (ﷺ)
فقلت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجائك .
قال فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أني بنت سيدها .

(٢) المنار ج ١٤٧/٣ .

(٣) وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : أنا ممن يعلم تأويله .

وهذا هو الذى حمل مجاهد اص ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله «والراسخون فى العلم» فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل^(١).

لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه فظن أن هذا هو التأويل المنفى عن غير الله .

وأصل ذلك أن لفظ (التأويل) وبه أشير إلى بين ما عناه الله فى القرآن ، وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الاشتراك فى لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغت أن ذلك هو المذكور فى القرآن ، ومجاهد إمام التفسير .

قال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك

وأما التأويل فشأن آخر ، وبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ، ولا قال هذه من المتشابه الذى لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين : إن فى القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله (ﷺ) ولا أهل العلم والإيمان وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه^(٢).

(١) يقول ابن قتيبة (ولسنا ممن يزعم أن التشابه فى القرآن لا يعلمه الراسخون فى العلم وهذا غلط من متأوليهِ على اللغة والمعنى ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ويدل به على معنى أراد ، فلو كان التشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال وتعلق علينا بعلّة ، وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله (ﷺ) لم يكن يعرف التشابه ثم قال : فإنما لم نر المفسرين توقفوا عن شئ من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أقرّوه كله على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة فى أوائل السور) انظر تأويل شكل القرآن ص ٩٨ وما بعدها.

(٢) ويؤكد هذا القول ما ذكره ابن تيمية فى تفسير سورة الإخلاص بقوله : والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له ، ولا يجوز أن يكون =

وانما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام فى الكلام فى آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك ، فلقبوها (هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه؟) وأما (تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم) فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التى هى تحريف الكلم عن مواضعه ، والغالب على كلا الطائفتين الخطأ، أولئك يقصرون فى فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه «ومنهم أفيون لا يعلمون التكاب إلا أمانى»^(١) وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

- الرسول وجميع الأمة لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقول من المتأخرين ، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون ، أو كان للتأويل معناه يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر ، وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المشابهة من القرآن ، وبين أن يقال الراسخون فى العلم ، يعلمون كان هذا الإنبات خيراً من ذلك النفي ، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ، على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره ، وهذا مما يجب القطع به ، وليس معنا دليل قاطع على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تفسير المشابهة ، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد مع جلالة قدره والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله (وقول أحمد فيما كتبه فى (الرد على الزنادقة والجهمية) ، فيما شككت فيه من مشابهة القرآن وتأويله على غير تأويله وأن المذموم تأويله على غير تأويله وأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضى أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده وهو التفسير فى لغة السلف ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف : إن فى القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها بل لا يتلون لفظاً لا يعرفون معناه .

(١) البقرة ٧٨١ رو ابن جرير عن ابن عباس : الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله فكاتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال ، هذا من عند الله وقال : قد أخبرهم أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجهودهم كتب الله ورسوله .

ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال : (لا يجوز أن يتكلم^١ الله بكلام ولا معنى به شيئاً خلافاً للحشوية) وهذا لم يقله مسلم أن الله يتكلم بما لا معنى له .

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه ؟ وبين نفى المعنى عند المتكلم ونفى الفهم عند المخاطب بون عظيم .

ثم احتج بما لا يجرى على أصله فقال : هذا عبث والعبث على الله محال ، وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع في الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين وحرار عقولهم : أن يدعى التأويل أخطاءاً في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواضعه ، فإن الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف وكلام العرب علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن ، فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه وصاروا مراتب ما بين قرامطة^(١) وباطنية^(٢) يتأولون الأخبار والأوامر ، وما بين صائبة

(١) القرامطة وهم يدعون إن الله نور علوى لا تشبهه الأنوار ، ولا يمازجه الظلام ، وأنه تولد من النور العلوى النور الشمعاني ، فكان منه الأنبياء والأئمة ، فهم بخلاف طبائع الناس وهم يعلمون الغيب وتقدر على كل شيء ولا يمجزم شيء ويقهرون ولا يقهرون ولهم علامات معجزات وأمارات ومقدمات قبل مجيئهم وظهورهم ، وزعموا أنه تولد من النور الشمعاني نور ظلامى ، وهو النور الذى تراه فى الشمس والقمر والكواكب والنار والجواهر الذى يخالطه الظلام ، غير أن الخلق كله تولد من القديم البارى وهو النور العلوى الذى لم =

فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء ، وما بين جهمية^(١) ومعتزلة^(٢) يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر

= يزل ولا يزول ، سبق الحوادث وأبدع الخلق من غير شيء كان قبله قدره نافذ وعلمه سابق ، ثم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافذة لا فرض ، وإنما هو شكر للمنتعم ، وأن الرب لا يحتاج إلى عباده مخلقه ، وإنما ذلك شكرهم ، فمن شاء فعل ومن شاء لم يفعل ، والاختيار في ذلك إليهم ، وزعموا أنه لا جنة ولا نار ، ولا بهت ولا نشور ، وأن من مات بلى جسده ، وليس روحه بالنور الذي تولد منه .

= (٢) الباطنية ، قوم تسموا بالإسلام ومالوا إلى الرخص وعفالفهم وأعمالهم تبين الإسلام بالمرءة فمحصل قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والمعادات وإنكار البعث ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم ، بل يزعمون أن الله حق وأن محمداً رسول الله والدين صحيح لكنهم يقولون لتلك سر غير ظاهر وقد تلاعب بهم لإلهاس قبالع وتحسن لهم مذاهب مختلفة ولهم ثمانية أسماء .

(١) الجهمية ، أصحاب جهم بن صفوان وهو من الجبهة الخالصة ، ظهرت بدعته بقرمذ وقته سالم بن أحمر المازني يهجو في آخر ملك بني أمية ، ووافق المعتزلة في نفى الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء فيها ، لا يجوز أن يوصف الباري بصفة يوصف بها خلقه ، قال : لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه لأنه لو علم ثم خلق ، أبقى علمه على ما كان أو لم يبق ، فإن بقي فهو جهل ، فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد ، وإن لم يبق فقد تغير ، والمتغير مخلوق ليس بقديم ، ومنها قوله في القدرة الخادعة ، أن الانسان ليس بقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة .

(٢) المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية وهم يقولون أن الله تعالى قديم والقدم أحسن وصف ذاته ونفوا الصفات القديمة أصلاً ، فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا يعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أحسن الوصف لشاركته في الإلهية ، وافقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصفات كتاب أمثاله في المصاحف حكمايات عنه وافقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسماً وغيره وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأكراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها . وافقوا على أن المبدأ قادر خالق لأفعاله غيرهما وشراً مستحق على ما يفعل لوابها وقابها في الدار الآخرة والرب معزه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر .

وفى آيات القدر يتأولون آيات الصفات ، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية* على ما جاء فى بعض الصفات ، وبعضهم فى بعض ما جاء فى اليوم الآخر وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان تغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه .

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضا أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن ، ورأوا عجزاً وعبثاً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه ، وهم مصييون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن اخطأوا فى معنى التأويل الذى نفاه الله ، وفى التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك مبتدعاتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ولكن بفرية على الله ، وقول عليه مالا يعلمونه ، وإلحاد فى أسمائه وآياته ، فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك فى لفظ التأويل .

فإن (التأويل) فى عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثنة والمتصوفة ونحوهم هو : صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى معنى المرجوح لدليل يقتضيه^(١) .

وهذا التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف ، فإذا قال أحد منهم هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل والتأويل عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه

(١) للمار ج ١٤٤/٣ .

عن المعنى الظاهر، وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى : مسائل الصفات إذا صنف بعضهم فى إبطال التأويل أو ذم التأويل أو قال بعضهم : آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخرون بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز ، يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم ، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما (التأويل) فى لفظ السلف فله معنيان (أحدهما) تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل ، والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا ، وهذا والله أعلم هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله ، ومحمد بن جرير الطبرى يقول فى تفسيره : القول فى تأويل قوله كذا وكذا ، واختلف أهل التأويل فى هذه الآية ونحو ذلك ومراده التفسير .

و (المعنى الثانى) فى لفظ السلف ، وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو نفس المراد بالكلام ، فإن الكلام إن كان طلباً ، كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خيراً كان تأويله نفس الشئ المخبر به ، وبين هذا المعنى والذى قبله بون ، فإن الذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم ، والكلام كالتفسير والشرح والإيضاح ، ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان له الوجود ذهنى واللفظى والرسمى ، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلية ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة فى الخارج ، بما هو عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها ، وتلك الحقائق لا تعرف على ما هى عليه بمجرد الكلام وإخبار ، وإلا أن يكون المستمع قد تصورهما أو تصور نظيرها بغير كلام وإخبار ، لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب إما بضرب المثل ، وإما بالتقريب ، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها ، وإما بغير ذلك وهذا

الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التى نزل بها .

وقد قدمنا التبيين فى ذلك .

ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام لـيوسف «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك»^(١).

وقوله «ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ، قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما قبل أن يأتيكما»^(٢).

وقول الملائكة : «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فارسلون»^(٣).

وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر وآوى إليه أبوه «وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، ورفع أبوه على لعرش وخروا له سجداً ، وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً»^(٤).

فتأويل الأحاديث التى هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التى تؤول إليه كما قال يوسف «هذا تأويل رؤياى من قبل».

(١) يوسف / ٦ (تأويل الأحاديث) أى تعبیر الرؤيا .

(٢) يوسف / ٣٧ .

(٣) يوسف / ٣٩ أى لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط ، لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبیرها .

(٤) يوسف / ٩٩-١٠٠ ، التأويل هنا بمعنى ما يصير إليه الأمر .

والعالم بتأويلها الذى يخبر به . كما قال يوسف «لا يأتیکما طعام
ترزقانه» أى فى المنام «إلا نباتکما بتأويله قبل أن یأتیکما» أى قبل أن یأتیکما
التأویل وقال الله تعالى «فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن
کنتم تؤمنون بالله والیوم الآخر، ذلك خیر وأحسن تأویلاً»^(١) قالوا : أحسن
عاقبة ومصیراً^(٢) .

فالتأویل هنا تأویل فعلهم الذى هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأویل فى
سورة یوسف تأویل أحادیث الرؤیا ، والتأویل فى الأعراف وهونس تأویل القرآن،
وكذلك فى سورة آل عمران .

وقال تعالى فى قصة موسى والعالم «قال هذا فراق بینى و بینک سانبک
بتأویل مالم تستطع علیه صبراً»^(٣) إلى قوله «وما فعلته عن امرى ذلك
تأویل مالم تستطع علیه صبراً»^(٤) .

فالتأویل هنا تأویل الأفعال التى فعلها العالم من خرق السفینة، بغير إذن
صاحبها ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار ، فهو تأویل عمل لا تأویل قول ،
وإنما كان كذلك لأن التأویل مصدر أوله يؤوله تأویلاً، مثل حول تحویلاً، وحول
تحویلاً ، وأول يؤول تعدیة آل يؤول أولاً مثل حال يحول حولاً ، وقولهم : آل
يؤول، أى عاد إلى کذا ورجع إليه ، ومنه (المآل) وهو ما يؤول إليه الشئ
ويشاركه فى الاشتقاق الأكبر (الموئل) فإن وأل وهذا من أول ، والموئل المرجع
قال تعالى «لن یجدوا من دونه موللاً» .

(١) النساء / ٥٩ .

(٢) أورده ابن كثير نقلاً عن الشدى جـ ٥١٨/١ .

(٣) الكهف ٧٨١ والمقصود بتأویل : تفسیر .

(٤) الكهف ٨٢١ .

ومما يوافقه فى اشتقاق الأصغر (الآل) فإن آل الشخص من يؤول إليه ؟ وهذا لا يستعمل إلا فى عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤول إليه الآل ، كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون ، بخلاف الأهل والأول أفعال لأنهم قالوا فى تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى وفى القصص «وله الحمد فى الأولى والآخرة»^(١) .

ومن الناس من يقول فوعل ، ويقول أوله ، إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعال لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف ، سمي المتقدم أول ، والله أعلم لأن ما بعده يؤول إليه وينى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له ، والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى ، وأصغر وصغرى ، إلا من باب أحمر وحمرء ، ولهذا يقولون جتته أول من أمس وقال «من أول يوم»^(٢) «وأنا أول المسلمين»^(٣) . «ولا تكونوا أول كافرين»^(٤) .

ومثل هذا أول هؤلاء فهذا الذى فضل عليهم فى الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله فيعتمد عليه ، وهذا السابق كلهم يؤول إليه ، فإن من تقدم فى فعل فاستبق به من بعده كان السابق الذى يؤول الكل إليه ، فالأول له وصف السؤد والاتباع .

ولفظ (الأول) مشعر بالرجوع والعود ، والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدأ خلاف العائد لأنه إن كان أولا لما بعده ، فإنه يقال أول المسلمين وأول يوم فما

(١) القصص ٧٠١ .

(٢) التوبة / ١٠٨ .

(٣) الأنعام / ١٦٣ .

(٤) البقرة / ٤١ .

فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف^(١).

وإذا قلنا : آل فلان ، فالعود إلى المضاف لأن ذلك صيغة تفضيل في كونه مآلاً ومرجعاً لغيره ، لأن كونه مفضلاً دل على أنه مآل ومرجع لا آهل راجع ، إذ لا فضل في كون الشيء راجعاً إلى غيره إليه .

وإنما التفضيل في كونه هو الذي يرجع إليه ويؤال ، فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل في كونه مآلاً ومرجعاً والتفضيل المطلق في ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المتدنى والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله إليه الكلام ، أو ما يؤول إليه الكلام ، أو ما تأوله المتكلم ، فإن التفعيل يعزى على غير فعل ، كقوله «توتيل إليه تبتلاً»^(٢) فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلاً ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاصل ، كمدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله .

فالتأويل : هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه ، والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويؤول إلى حقيقته التي هي عين المقصود به ، كما قال بعض السلف في قوله «لكل نبأ مستقر»^(٣) .

قال : حقيقة^(٤) فإن إن كان خبراً فالإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذباً ، وإن كان طلباً

(١) انظر تفصيل ذلك في القرطبي ج ٢٨٤/١ .

(٢) المزمل ٨١ .

(٣) الأنعام / ٦٧ .

(٤) أورده ابن كثير نقلاً عن ابن عباس ج ١٤٣/٢ .

فإلى الحقيقة المطلوبة ويؤول ويرجع ، وإن لم يكن مقصوده موجودا ولا
حاصلا ، ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول ،
كما روى عن النبي (ﷺ) أن تلا هذه الآية «قل هو القادر على أن يبعث
عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شعياء» قال : أنها
كائنة ولم يأت تأويلها بعد^(١) .

(فصل)

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى التشابه الذى لا يعلم
تأويله إلا الله^(٢) ، أو اعتقاد أن ذلك هو التشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله ،
كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن
أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا
وجهين :

الأول : من قال إن هذا التشابه وأنه لا يفهم معناه ، فيقول أما الدليل
على بطلان ذلك فإننى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة ، لا
أحمد بن حنبل ولا غيره أن جعل ذلك من التشابه الداخلى فى هذه الآية ،
ونفى أن يعلم أحد معناه .

وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمى الذى لا يفهم ، ولا
قالوا : إن الله ينزل كلاما لا يفهمه أحد معناه ، وإنما قالوا كلمات لها معان
صحيحة ، قالوا فى أحاديث الصفات تمر كما جاءت .

(١) الأنعام / ٦٥ أورده ابن كثير وعزاه إلى الإمام أحمد فى مسنده والترمذى عن الحسن بن

عرفة عن إسماعيل بن عباس عن أبى بكر بن أبى مريم ثم قال : هذا حديث غريب .

(٢) أورده صاحب المنار ج ١٣٧/٣ وعزاه إلى ابن تيمية .

ونهبوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التي مضمونها تعطيل
النصوص على ما دلت عليه ، ونصوص أحمد والأئمة قبله بينه في أنهم كانوا
يطلبون تأويلات للجهمية منها ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها
وفهمونه منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص
الوعد والوعيد والفضائل وغيرها ذلك .

وأحمد قد قال : في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت في
أحاديث الوعد مثل قوله « من غشنا فليس منا »^(١) وأحاديث الفضائل ،
ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمة عن مواضعه ، كما يفعله من
يحرفه ويسمى تحريفه تأويلاً بالمرق المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل وكذلك نص أحمد
في كتاب الرد على الزنادقة والجهمية^(٢) أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم
أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ،
وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله ، فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم
يعلمون معنى هذا المتشابه وأن لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويقرر
باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاده في أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على
إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدون ، والتأويل المردود هو

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب قول النبي (ﷺ) « من غشنا » حديث رقم ٤٣ .

البخاري في كتاب الفتن باب ٩٣ ، قول النبي (ﷺ) « من حمل علينا السلاح » .

عن أبي هريرة قال « من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا » .

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٣٧ وما بعدها .

صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره ، فلو قيل إن هذا هو التأويل المذكور فى الآية وأنه لا يعلمه إلا الله ، لكان فى هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلا يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله ، وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها لا التوقف عنها، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها ، وتمر كما جاءت ، دالة على المعانى ، لا تحرف ولا يلحد فيها . والدليل على أن هذا ليس بمتشابه ، لا يعلم معناه أن نقول : لا ريب أن الله سمي نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيم والإخلاص وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وقوله «إن الله بكل شئ عليم»^(١) «على كل شئ قدير»^(٢) وأنه «يحب المتقين»^(٣) «والمقسطين»^(٤) «المحسنين»^(٥) وأنه يرضى على الذين آمنوا وعملوا الصالحات «فلما آسفونا انتقمنا منهم»^(٦) «ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله»^(٧) «ولكن كره الله انبعاثهم»^(٨) «الرحمن على العرش استوى»^(٩) «ثم استوى على العرش»^(١٠) «يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم»^(١١) «وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم»^(١٢) «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»^(١٣) «إننى معكما أسمع وأرى»^(١٤) «وهو الله فى السموات وفى الأرض»^(١٥) «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي»^(١٦)

- | | | |
|---------------------|----------------------|---------------------|
| (١) المنكبوت / ٦٢ . | (٢) البقرة / ٢٠ . | (٣) آل عمران / ٧٦ . |
| (٤) المحتجة / ٨ . | (٥) آل عمران / ١٣٤ . | (٦) الزخرف / ٥٥ . |
| (٧) محمد / ٢٨ . | (٨) التوبة / ٤٦ . | (٩) طه / ٥ . |
| (١٠) الأعراف / ٥٤ . | (١١) الحديد / ٤ . | (١٢) فاطر / ١٠ . |
| (١٣) فاطر / ١٠ . | (١٤) طه / ٤٦ . | (١٥) الأنعام / ٣ . |
| (١٦) ص / ٧٥ . | | |

«بل يدهم مبسوطتان ينفق كيف يشاء»^(١) «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»^(٢) «يريدون وجهه»^(٣) «ولتصنع على عيني»^(٤) إلى أمثال ذلك.

فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هذا في جميع ما سمي الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟ فإن قلت : هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ووجهاً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح ، فإننا نفهم من قوله «إن الله بكل شيء عليم»^(٥) معنى ونفهم من قوله «إن الله على كل شيء قدير»^(٦) معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله «ورحمتي وسعت كل شيء»^(٧) معنى ونفهم من قوله «إن الله عزيز ذو انتقام»^(٨) معنى ، وصبيان المسلمين بل وكل عامل يفهم هذا ، وقد رأيت بعض من ابتدع وجهاً من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة من يقول : إنا نسمى الله الرحمن العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله «ولا يحيطون بشيء من علمه»^(٩)

بطلق هذا اللفظ من غير أن نقوله علم .

وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة في الباطن ، لكن هذا ليس وذلك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود وعلى حق موجود أم لا ؟ فإن قال : لا كان معطلاً محضاً ، وما أعلم مسلماً يقول

(٣) الأنعام / ٥٢

(٢) الرحمن / ٢٧

(١) المائدة / ٦٤

(٦) البقرة / ٢٠

(٥) النكبات / ٦٢

(٤) طه / ٣٩

(٩) آية الكرسي

(٨) إبراهيم / ٤٧

(٧) الأعراف / ٥٦

هذا، وإن قال : نعم ، قيل له : فهمت منها دلالتها على نفس الرب ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم وكلاهما في الدلالة سواء ؟

فلا بد أن يقول : نعم ، لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات ، فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني ، كما سيذكره ، وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض ، فيقال له : ما الفرق بين ما أثبتته وبين ما نفيت أو أنككت عن إثباته ونفيه ، فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع ، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر ، أو من جهة العقل بأن على المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع ؟

أما (الأول) فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير على عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينها فرق من جهة النص ، وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته .

وأما (الثاني) فيقال لمن أثبت شيئا ونفى آخر : لم نفيت مثلا حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟

فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله .

فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه .

قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه وكذلك محبته .

وإن قال : وهو حقيقة قوله : لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع وإنما أثبت العلم والقدرة والإرادة بالعقل ، وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى

الطريقتين ، لأن العقل دل على القدرة والإحكام دل على العلم ، والتخصيص
دل على الإرادة ، قبل له الجواب من ثلاث أوجه :

أحدها : أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضا على الرحمة
كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والادناء .

وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة أو مطلق
التخصيص يدل على الإرادة وأما التخصيص بالإنعام ، فتخصيص خاص ،
والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقرب خاص وما سلكه في مسلك الإرادة ،
يسلك في مثل هذا .

الثاني : يقال له يجب أن العقل لا يدل على هذا فإنه لا ينفى إلا بمثل ما
ينفى به الإرادة والصحيح ، دليل مستقل بنفسه بل الطمأنينة إليه في هذه
المضائق أعظم ودلالته أتم فلا شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه
الصفات كلها إلى الإرادة مع أن النصوص تفرق فلا يذكر حجة إلا عورض
بمثلا في إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث : يقال له إذا قال لك الجهى الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه
أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن أن إثبات إرادة تقتضى محذورا إن قال
بقدمها ومحذورا إن قال بحدونها .

وهنا اضطربت المعتزلة ، فانهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة
قديمة عندهم ، ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم
مع تناقضهم .

فصاروا حزبين : البغداديون وهم أشد غلوا في البدعة في الصفات وفي
القدر نفوا حقيقة الإرادة .

وقال الجاحظ^(١) : لا معنى لها إلا عدم الإكراه.

وقال الكمبي : لا معنى لها إلا نفس الفعل إذا تعلق بفعله ونفس
الأمر إذا تعلق بطاعة عباده .

والبصريون كأبي علي^(٢) وأبي هاشم^(٣) : قالوا : تحدث إرادة لا في محل

(١) كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم وقد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وانفرد عن
أصحابه بمسائل منها قوله : إن المعارف عنها ضرورة طباع وليس شيء من ذلك من أفعال
العباد وليس للعباد كسب سوى الإرادة ويحصل أفعاله منه طباعاً ، ومنها قوله في أهل النار
إنهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعة النار ، وكان يقول النار تجذب أهلها إلى
نفسها دون أن يدخل فيها أحد ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفى الصفات وفي إثبات القدر
خير من غيره .

(٢) أبي علي الجبائي : الذي أضل أهل خوزستان ، وكانت المعتزلة البصرية في زمانه على
مذهبه من ضلالاته أنه سمى الله عز وجل مطيعاً لعبده إذا فعل مراد العبد وكان سبب ذلك
أنه قال يوماً لشيخنا الأشعري : ما معنى الطاعة عندك ؟ فقال : موافقة الأمر ؟ وسأله عن قوله
فيها . فقال الجبائي : حقيقة الطاعة عندى موافقة الإرادة وكان من فعل مراد غيره فقد
أطاعه ، فقال أبو الحسن : يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل
مراده فالتزم ذلك فقال الإمام الأشعري . خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين .
وزعم أن أسماء الله تعالى جارية على القياس ، وأجاز اشتقاق اسم له من كل فعل وزعم ومن
ضلالاته أنه أجاز وجود عرض واحد في أمكنة كثيرة وفي أكثر من ألف ألف مكان .

(٣) أبي هاشم بن الجبائي وهو معتزلي ويقال لهم : الذممة لقولهم باستحقاق الذم لا على فعل
وقد شارك المعتزلة في أكثر ضلالاتها وانفرد عنها بفضائح لم يسبق إليها قوله باستحقاق الذم
والعقاب لا على فعل .

والثاني أنه سمى من لم يفعل ما أمر به عاصياً وإن لم يفعل معصية ولم يوقع اسم المطيع إلا
على من فعل طاعة ولو صح عاص بلا معصية لصح مطيع بلا طاعة ولصح كافر بلا كفر =

فلا إرادة فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير كل ، وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة .

وكان جوابه أن ما ادعى إحاطته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها والعقل أيضا ، فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص^(١) أو العقل جلعه مسفسطاً أو مقرمطاً^(٢) وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فإن خصومة ينازعون في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : هم أثبتتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به مع سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه ، عورضوا بمثله في العليم والقدير وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعاني وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ما قررناه في غير هذا الموضع ، فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية والضرورة العقلية والقواطع العقلية واتفاق الأمم غير ذلك من الدلائل ، ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده أو بوجود معلمون كيفيته ، فلا بد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته

= ثم إنه زعم أن هذا المكلف لو تغير تغيراً قبيحاً يستحق بذلك قسطين من العذاب . أحدهما : للقبیح الذي فعله والثاني لأنه لم يفعل الحسن الذي أمر به ولو تغير تغيراً حسناً وفعل مثل أعمال الأنبياء وكان الله تعالى قد أمره بشئ فلم يفعل ولا فعل ضده لصار مغلداً . انظر الفرق بين الفرق ص ١٨٢ وما بعدها .

(١) دلالة النص : إذا كانت عبارة النص تدل على الحكم في واقعة بمبارته وبفهم من النص هذا الحكم في واقعة أخرى لتحقيق موجب الحكم منه .

(٢) دلالة الاقتضاء هي دلالة اللفظ على كل أمر لا يستقيم المعنى إلا بتقديره .

الحقائق، فالقول فى سائر ما سُمى ووصف به نفسه ، كالقول فى نفسه
سبحانه وتعالى .

(ونكتة هذا الكلام) أن غالب من نفى وأثبت شيئا مما دل عليه الكتاب
والسنة لابد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاع المانع ، وينفى الشيء لوجود
المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن له عنده تقتضى ولا مانع ، فيبين
له أن المقتضى فيما نفاه قائم كما أنه فيما أثبته قائم ، إما من كل وجه أو من
وجد يجب به الإثبات ، فإن كان المقتضى هناك حقا فكذلك هنا ، وإلا فدرء
ذاك المقتضى من جنس درء هذا .

وأما المانع فيبين أن المانع الذى تخيله فيما نفاه من حنس المانع الذى
تخليله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجودا على التقديرين لم ينج
من محذوره بإثبات أحدهما ونفى الآخر ، فإنه إن كان حقا نفاهما ، وإن كان
باطلا لم ينف واحدا منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين فى الإثبات والنفى
ولاسبيل إلى النفى ، فتعين الإثبات .

فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئا ، وما من أحد إلا ولابد أن يثبت شيئا أو
يجب عليه إثباته ، فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها
موجبة النفى خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما
من حيث التفصيل ، فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غيره مرة ،
فإن قال : من أثبت هذه الصفات التى هى فىنا أعراض ، كالحياة والعلم
والقدرة ، ولم يثبت ما هو فىنا أبعاد ، كاليد والقدم ، هذه أجزاء وأبعاد
تستلزم التركيب والتجسيم .

قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى ، كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسى ، فإن أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها .

قيل له : وأثبت [إثبات] هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قيل : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض . فإن قال : العرض مالا يلقى وصفات الرب باقية قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك من حق الله محال ، فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقا ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : هذا تجسيم والتجسيم منتف .

فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير ، قيل له : فأعقل صفة هى لنا بعض لغير متحيز ، وإن لم يكن فى الشاهد نظير ، فإن نفى عقل هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فوق ، لكنه فرق غير مؤثر فى موضع النزاع ، ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفى الجميع ، لكن ذاك أيضا مستلزم لنفى الذات ومن أثبت هذه الصفات الخيرية من نظير هؤلاء صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضا ليس هو معقول النص ولا مدلول العقل ، وإنما ضرورة ألجأتهم إلى هذه المضائق .

وأصل ذلك : أنهم اتوا بالفاظ ليست فى الكتاب ولا فى السنة ، وهى

ألفاظ بحملة مثل متحيز ومحدود وجسم ومركب ونحو ذلك ونفوا مدلولها؛ وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلمة ومدلولاً عليها بنوع قياس، وذلك القياس أوقعهم فيه سلك سلوكه في إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء فوجب طرد الدليل والحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل، إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك لمعارض راجح، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ومن جهة النقل من ناحية أخرى، فصاروا أحزاباً تارة يغلبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة، وتارة يغلبون القياس الثاني ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضي^(١) فانه قد قيل أول ما تكلم في الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبى الهذيل العلاف^(٢) فإن أبا الهذيل ونحوه من قد ماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلوكه من

(١) زعم هشام بن الحكم أن معبوده جسم ذو حدّ ونهاية وأنه طويل عريض عميق وأن طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، ولم يثبت طولاً غير الطويل ولا عرضاً غير العريض وزعم أنه نور ساطع يتلأأ كالسبيكة الصافية من الفضة كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها. وزعم أنه ذو لون ورائحة وطعم ومجسّم، ثم قال: قد كان الله ولا مكان، ثم خلق المكان بأن تحرك فحدث فمكانه بحركته فصار فيه ومكانه هو العرش. وقال: إنه سبعة أشبار بشير نفسه، كأنه قاسه على الإنسان، لأن كل إنسان في الغالب من العادة سبعة أشبار بشير نفسه.

وضل في صفات الله فأحال القول بأن الله لم يزل عالماً بالأشياء وزعم أنه علم الأشياء بعد أن لم يكن عالماً بها بعلم، وأن العلم صفة له ليست هي هو ولا غيره ولا بعضه انظر تفصيل ذلك في الفرق بين الفرق ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) كان مولى لعبد القيس وقد جرى على منهاج أبناء السبايا لظهور أكثر البدع منهم، وفضائحهم تترى تكفره فيها سائر فرق الأمة من أصحابه في الاعتزال ومن غيرهم فمن فضائحهم قوله بفناء مقدورات الله عز وجل حتى لا يكون بعد فناء مقدراته قادراً على شيء، ولأجل هذا زعم أن نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يفتيان ويبقى حبش أهل الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرّون على شيء ولا يقدر الله عز وجل في تلك الحال على إحياء ميت =

القياس ، واعتقد الأولون من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته واعتقد هذا
 إحالة نفيه ، وثارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة
 والتناقض . فما أعلم أحدا من الخارجين عن الكتاب والسنة في جميع فروع
 الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما
 أحال نظيره ، إذ كلامهم من عند غير الله ، وقد قال الله تعالى «ولو كان من
 عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»^(١) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به
 نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبيل
 السلف الماضين أهل العلم والإيمان والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة ، لا ترد
 بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها فيكون
 من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا^(٢) .

ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى^(٣)
 فهذا أحد الوجهين وهو منع أن تكون هذه من المتشابهة .

الوجه الثاني : أنه إذا قيل : هذه من المتشابهة ، أو كان منها ما هو من
 المتشابهة كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمي بعض ما استدل به الجهمية
 متشابهها فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله إما المتشابهة وإما
 الكتاب كله كما تقدم ، ونفى تأويله ليس نفى علم معناه كما قدمناه في

= ولا على إمامة حتى ولا على تحريك ساكنه ولا على تسكين متحرك ولا على إحداث شيء ،
 ولا على إفاء شيء مع صحة عقول الأحياء في ذلك الوقت

(١) النساء / ٨٢ .

(٢) الفرقان / ٧٣ .

(٣) البقرة / ٧٨ .

القيامة وأمور القيامة ، وهذا الوجه قوى إن ثبت حديث ابن اسحاق فى وفاة
نجران إنهم احتجوا على النبى (ﷺ) بقوله (إنا) و(نحن) ونحو ذلك، ويؤيده
أيضاً أن قد ثبت أن فى القرآن متشابها وهو ما يحتمل معنيين ، وفى مسائل
الصفات ما هو من هذا الباب كما أن ذلك فى مسائل المعاد أولى ، فان نفى
المتشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفى التشابه بين موعود الجنة وموجود
الدنيا .

وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفى علم التأويل ليس نفيًا لعلم
المعنى ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول «ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن
من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنًا عربياً غير ذى عوج»^(١) .

وقال تعالى «الر * تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآنًا عربياً
لعلكم تعقلون»^(٢) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه وأنه طلب تذكرهم وقال أيضاً
«وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»^(٣)

فحضره على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيه ولم يستثن من
ذلك شيئاً ، بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله «أفلا يتدبرون
القرآن أم على قلوب أقفالها»^(٤) .

(١) الروم / ٢٧ .

غير ذى عوج : أى قرآن بلسان بين لا أعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان
ووضوح وبرهان ، وإنما جملة الله تعالى كذلك وأنزله بذلك .

(٢) يوسف / ١ - ٢ .

(٣) العنكبوت / ٢١ .

(٤) محمد / ٢٤ .

وقوله «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كبيراً»^(١)

ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله، وإلا فتدبر
بعض لا يوجب الحكم بنفى مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر .

وقال على رضى الله عنه لما قيل له : هل ترك عندكم رسول (ﷺ)
شيئاً ؟

فقال : لا والذي طلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمأ يؤتيه الله عبداً فى
كتابه وما فى هذه الصحيفة .

فأخبر أن الفهم فيه مختلف فى الأمانة ، والفهم أخص من العلم
والحكم ، قال الله تعالى «فقهمنها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً»^(٢)

وقال النبى (ﷺ) «رب مبلغ أوعى من سامع»^(٣)

وقال «بلغوا عني ولو آية»^(٤)

(١) النساء / ٨٢

(٢) الأنبياء / ٧٩

(٣) رواه الامام أحمد فى المسند ج ١ / ٤٣٧ ، والترمذى فى كتاب العلم باب ٧

ما جاد فى البحث على تبليغ السماع حديث رقم ٢٦٥٧ وقال حديث حسن صحيح .

ابن ماجه فى المقدمة باب من بلغ علماً حديث رقم ٢٢٢

ونص الحديث «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه قرب مبلغ أوعى له من
سامع» .

(٤) رواه الدارمى فى المقدمة باب البلاغ عن رسول الله (ﷺ) وتعليم السنة حديث رقم ٥٤٢ .

ونص الحديث «بلغوا عني ولو آية وحذثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً
فليتبوأ مقعده فى النار» .

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة ، قد تكلموا في جميع نصوص القرآن، آيات الصفات وغيرها وفسرها بما يوافق دلالتها ، ورووا عن النبي (ﷺ) أحاديث كثيرة توافق القرآن، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم مثل عبد الله بن مسعود الذي كان يقول : لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه آباط الإبل لأتيته .

وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي (ﷺ) وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كاناهما : أصحابها من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي (ﷺ) ، ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا .

وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السدين ، بل وثالثهما في علية التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلاله ، أصحاب زيد بن ثابت لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس ، ولو كان معاني هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة - أكثر كلاً ما فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي (ﷺ) أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئونا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي (ﷺ) عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل .

وكذلك الأئمة إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية، لقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى «الرحمن على

العرش استوى» كيف استوى : فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به والسؤال عنه بدعة ^(١) .

وكذلك ربيته قبله ^(٢) ، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالتبول ، فليس فى أهل السنة من ينكره ، وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال كيف استوى ، ولم يقل مالك الكيف معلوم ، وإنما قال الكيف مجهول ، وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون لا تخطر كيفيته ببال ولا تجرى فى مقال ، ومنهم من يقول ليس له كيفية ولا ماهية .

فإن قيل : معنى قوله الاستواء معلوم ، أن ورود هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قال بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذى استأثر كما قال بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذى استأثر الله بها بعلمه ^(٣) .

قيل : هذا ضعيف فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، فإن السائل قد علم أن هذا موجود فى القرآن وقد تلا الآية .

(١) الملل والنحل للشهرستاني والدر المنثور ج ٣ / ١٧٠ .

(٢) سئل ربيعة عن قوله «استوى على العرش» كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق .

(٣) قال نعيم بن حماد شيخ البخارى : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس لهما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصحيحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونقص عن الله تعالى النقائص فقد ضل سبيل الهدى .

وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء فى القرآن ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، ثم يخبر عن الجملة ، وأيضاً فإنه قال : والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم يبق إلا العلم بكيفية الاستواء إلا العلم بنفس الاستواء ، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال فى قوله «إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول ، ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ، لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم .

وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة وذاته فوق ذات العرش^(١) لا ينكرون معنى الاستواء ولا يرون هذا من التشابه الذى لا يعلم معناه بالكلية .

ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة ، قال بعضهم : ارتفع على العرش : علا على العرش ، وقال بعضهم : عبارات أخرى ؟ وهذه ثابتة على السلف قد ذكر البخارى فى صحيحه بعضها فى آخر كتاب (الرد على الجهمية) وأما التأويلات المحرفة ، مثل استوى ، وغير ذلك فهى من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية ، وأيضاً قد ثبت أن اتباع

(١) الاستواء فى كلام العرب متصرف على وجوه منها ، انتهاء شباب الرجل وقوته فقال إذا صار كذلك : قد استوى الرجل ومنها استقامة ما كان فيه أود من الأمور والأسباب ، يقال منه : استوى لفلان أمره إذا استقام بعد أود ومنها الأقبال على الشئ ، يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الاحسان إليه ، ومنها الاحتياز والاستيلاء ، كقولهم : استوى فلان على المملكة ، بمعنى احتوى عليها وحازها ومنها العلو والارتفاع كقول القائل ، استوى فلان على سريره يعنى به علوه عليه .

(٢) انظر ص ٤٨ وما بعدها .

المتشابه ليس فى خصوص الصفات بل فى صحيح البخارى أن النبى (ﷺ) قال لعائشة (يا عائشة إذ رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمي الله فاحذريهم)^(١) وهذا عام ..

وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا فان بلغه أنه يسأل عن متشابهه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن «الذاريات ذروا» فقال: ما اسمك / قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنت عبد الله عمر وضريه الضرب الشديد) .

وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل فى مسألة من هذا الجنس ، يقول: ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ ، وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام .

كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : «إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه»^(٢) وكما قال تعالى «فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة» فعاقبهم .

على هذا القصد الفاسد كالذى يعارض بين آيات القرآن وقد نهى النبى (ﷺ) عن ذلك ، وقال «لا تضربوا كتاب الله ببعضه ببعض» .

(١) وزاد القرطبى . فقال : حبسك يا أمير المؤمنين ، فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى ، لم إن الله ألهمه القوة وقذفها فى قلبه فتاب وحسنت نوبته .

(٢) البخارى فى كتاب التفسير باب : «منه آيات محكمات» حديث رقم ٤٥٤٧ .
مسلم فى كتاب العلم باب النهى عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه الترمذى فى كتاب التفسير باب ٤ : «ومن سورة آل عمران» حديث رقم ٢٩٩٤ .

فان ذلك يوقع الشك فى قلوبهم ، ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء الذين
لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل
المسائل التى نهى رسول الله (ﷺ) عنها .

ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن (صيفاً سأل عمر عن الذاريات^(١))
ولست من الصفات ، وقد تكلم الصحابة فى تفسيرها مثل : على بن أبى
طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها كره سؤاله ، لما رآه من قصده لكن على
كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤديه ، والذاريات
والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح
والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس فى اللفظ ذكر
الموصوف والتأويل الذى لا يعلمه إلا الله ، هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها
ومتى تهب ، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر ، وكذلك
فى الجاريات والمقسمات فهذا لا يعلمه إلا الله ، وكذلك فى قوله (إنا)
(ونحن) ونحوهما من أسماء الله التى فيها معنى الجمع ، كما اتبعه النصارى ،
فان معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعانى
بمنزلة الأسماء المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فإن المسمى
واحد ومعانى الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذى لفظه الجمع .

(١) أى الريح .

(٢) روى ابن كثير فى تفسيره عن على رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة . فقال : لانسألونى
عن آية فى كتاب الله ولا عن سنة عن رسول الله (ﷺ) إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن
الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين . ما معنى قوله تعالى ﴿والذاريات ذروا﴾ قال على رضى الله
عنه : الريح ، قال : ﴿فالحاملات وقرا﴾ قال : السحاب . قال ﴿فالجاريات يسرا﴾ قال : السفن ،
قال ﴿فالمقسمات أمرا﴾ قال : الملائكة ج ٢٣١/٤ .

وأما التأويل الذي احصى الله به فحقيقة ذاته وصفاته كما قال مالك :
والكيف مجهول ، فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره ، قيل :
هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله .

وما أحسن مدحنا التأويل إلى القرآن كله ، فإن قيل : فقد قال النبي
(ع) : لا بن عباس . اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل^(١) .

قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المجهول ، لم
يقبل تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة
مغبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العبادة تأويله ، وهذا كقوله
«هل ينظرون إلا تأويله» : يوم يأتي تأويله ، وهذا كقوله «هل ينظرون إلا
تأويله» : يوم يأتي تأويله ، وقوله «هل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم
تأويله» فان المراد تأويل الخبر الذي فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذي ينتظر ويأتي
ولما ياتهم ، وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وحسن
مضى وإن أدخل في التأويل لا ينتظر .

والله سبحانه أعلم به التوفيق

تمت بحمد الله وسأله (الإكليل في المتشابه والتأويل)

(١) البخاري في كتاب الوضوء باب ١٠ وضع الماء عند الخلاء حديث رقم ١٤٣ مسلم في
كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عباس .

الفهرس

الصفحة

٦	القلوب ثلاثة
٨	المحكم فى القرآن
١٠	أسباب الجمل
١٢	مفهوم التأويل
٢٢	ابن عباس وجهوده فى التفسير
٢٥	مفهوم التأويل عند القرامطة والباطنية
٢٧	مفهوم التأويل عند المتأخرين
٣٠	تفسير (التأويل) لغة
٣٣	فصل
٣٣	مفهوم الأسماء والصفات
٣٨	اضطراب قول المعتزلة
٤٤	الاعتقاد بمذهب السلف
٤٧	الصحابة وتفسيرهم للقرآن
٤٩	تفسير الاستواء